مصادر الدّراسة بين البصريّين والكوفيين

أ.فتيحة عبّاس

جامعة تلمسان / الجزائر

ملخص:

اشتهر النّحو العربيّ بقواعده بشهرة المدرستين: البصرة والكوفة، وهما في نظرنا مؤسّستان علميّتان في تاريخ الأمّة العربيّة، فكان الأساس المعرفي لمدرسة البصرة ينطلق من مصادر الدّراسة في ثلاثة عناصر هي: القرآن والشّعر والقياس، وكان الأساس المعرفي في مدرسة الكوفة هو لغات الأعراب والشّعر العربيّ، والقراءات، وبذلك تسهل الموازنة بين هاتين المدرستين العظيمتين، وتلتقي المدرستان كلتاهما في العناية بإتقان القاعدة لحماية اللّغة العربيّة من اللّحن وتهتم بالحرص على العناية الكافيّة في الحفاظ على كتاب اللّه.

الكلمات المفتاحيّة:

اللّحن _ اللّغة العربيّة_ النّحو _ المدارس النّحويّة _ البصرة _ الكوفة _ مصادر الدّراسة.

مقدّمة:

تعدّ اللّغة العربيّة لغة غنيّة وراقيّة، فقد كانت ولا تزال مفخرة بعلمائها الذّين برزوا في البحوث العلميّة بفضلها، فكانوا شعلة، وجوهرة أضاءت الكتابات العربيّة القديمة والحديثة، وممّا لاشكّ فيه أنّ القرآن الكريم قد ساعد على رفعها إلى مقام المثل الأعلى في التّعبير عن المقاصد، فحصّنها، وحافظ عليها وآزرها. بالإضافة إلى جهود

اللّغويّين المتظافرة، وعنايتهم الخالصة بلمّ شتاتها، وجمع شواردها في طور داهمها فيه الخطر، وكادت أن تفقد مقوّماتها ورونقها.

ومعلوم أنّ اللّغة ظاهرة إنسانيّة ولها مستويات صوتية ونحويّة، وصرفيّة. "ولعلّ أخطر جانب في دراسة اللّغة هو الجانب النّحوي الصّرفي إذ بواسطته يتحقق ذلك التّواصل التّي تهدف إليه اللّغة"[1]، ولقد اهتمّ الدّرس النّحوي بضبط أواخر الكلمات، أمّا الدّرس الصّرفي فقد عني بتناول بنية الكلمة.

وقد اهتمّ العرب منذ العصور الأولى بالنّحو العربي، وكانوا قبل نزول القرآن الكريم يجرون في كلامهم وأشعارهم وخطبهم على السّليقة ولغتهم لم تكن مضبوطة في قواعدها لأنّهم لم يحتاجوا إليها أصلا. ولما انتشر اللّحن واختلط العجم بالعرب، ظهرت الجهود العلميّة العربيّة لتجاوز هذه المحنة ووضعوا قواعد النّحو، بضبط حركات الإعراب والبناء، وهذا ما سميّ ب"علم النّحو".

ولما امتزج العرب بغيرهم من الأمم فشا اللّحن في قراءة القرآن الأمر الذّي أفزع أبا "الأسود الدّؤلي" إلى وضع قواعد النّحو التّي هي أساس ضبط المصاحف بالشّكل حفاظا على قراءة القرآن من اللّحن والخطأ"[2]. وسار العلماء على هذا المنهج ولجؤوا إلى أوّل شيء احتاجوا إليه في ضبط القراءة هو "النّحو"، وقد وردت روايات كثيرة تدلّ على تفشّي ظاهرة اللّحن في اللّغة العربيّة سبق وأن ذكرناها في المبحث السّابق.

1- محمّد بوعرعارة "القواعد النّحويّة في ضوء الدّراسات اللّسانيّة الحديثة"، قراءة نقدية، جامعة ابن خلدون، تيارت، ص 62، د.ت.

2- المرجع نفسه: ص 361.

فكلّ ما شوهد من لحن النّاس في قراءة القرآن بعد انتشار العرب كانت باعثا لوضع وضبط القواعد.

وعلى الرّغم أنّ النّحو هو الذّي ضبط القراءة ووضع لها قواعد فقد بقي اللّحن والخطأ مرتبطين بصياغة كثير من المفردات، فاحتيج حينئذ إلى وضع قواعد أخرى لضبط أبنية الكلم ومعرفة أحوالها غير الإعراب والبناء وتلك القواعد تعرف ب"علم الصّرف". ولم ينفصل علم النّحو مع علم الصّرف، وكان الصّرف وقت نشوئه مندمجا في النّحو واللّغة والأدب تحت اسم "علم العربيّة"، ثمّ أطلق سيبويه عليه وعلى النّحو اسم "علم النّحو" وقد تبعه من جاءوا بعده فعرّفوا النّحو بأنّه: علم تعرف به أحوال الكلم العربيّة إفرادا وتركيبا، وما نلاحظه هو أنّ هذا التّعريف يشمل النّحو والصّرف ثمّ التّفريق بينهما فأصبح الأوّل يسمّى "علم الصّرف"، والآخر يدعى "علم النّحو".

يقول الحملاوي حول علم الصّرف: "ما انتظم عقد علم إلاّ والصّرف واسطته، ولا ارتفع مناره إلاّ وهو قاعدته إذ هو دعائم الأدب، وبه تعرف سعة كلام العرب وتتجلّى فوائد مفردات الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة وهما الواسطة في الوصول إلى السّعادة الدّينيّة والدّنيوية"[1].

يجمع الدّارسون في مجال الثّقافة العربيّة على أنّ العرب كانوا قبل الإسلام ينطقون العربيّة على السّليقة، واشتهروا بالفصاحة والبلاغة واصطنعوا لأنفسهم حياة ثقافيّة خاصّة بهم للتّباهي بهذه البلاغة والفصاحة باللّغة العربيّة واختاروا أسواقا ونوادي أدبيّة من الشّعر والنّثر من الخطابة والمناظرة الحكميّة حتّى أصبحت تلك اللّغة المصطفاة لغة رسميّة. وقد تعزّزت منه اللّغة بمجيء الإسلام، ونزول القرآن الكريم

1- أحمد الحملاوي: شذا العرف في فنّ الصّرف، ط16، 1384هـ، 1965م، ص 17، 18.

بلسانها، فقد كانت حاجة العرب إلى الرّجوع إلى آثارهم الأدبيّة، ومنها الشّعر خاصّة حتّى يُمكّنهم فهم ألفاظه ونصوصه ومعانيه التّي تتضمّن أحكام الدّين الجديد. ولما كان دينا عالميّا أنزل لكافة النّاس، اِنطلق أتباعه في الآفاق يفتحون القلوب، ويشرحون الصّدور لاعتناق عقيدته ومبادئه، فكان العرب بحكم رسالتهم مكلّفين بالانفتاح والاختلاط بغيرهم قياما بذلك الواجب العسير. على الرّغم بما كان لهذه الفتوحات من آثار متفاوتة على العربيّة بعضها إيجابي وبعضها سلبي. يتجلّى الإيجابي في سعتها لكثرة النّاطقين بها، وإقبال الأعاجم العجيب على تعلّمها لرفع شأنهم عند أولي الأمر، وبالتّالي استخدامها في كلامهم اختياريا، لأنّ مبدأ الحريّة مستوحى من الدّين الإسلامي الذّي لم يكن يجبر شعبا ذا دين سماوي على اعتناقه. ويتجلّى السّلبي في انتشار لهجات تلك الشّعوب المفتوحة واختلاطها بالعربيّة، والنّتيجة فقدان السّيطرة والتّحكّم في نطق الأشخاص.[1]

وهو دليل ضعف وتقهقر تسبّب في شيوع اللّحن. فكان ظهوره الدّافع الأوّل لتدوين اللّغة وجمعها واستنباط قواعد النّحو، فقد كانت حوادثه تنذر بالخطر الذّي هبّ على العربيّة والإسلام، فمن الباحثين من ذهب إلى وقوعه في الجاهليّة، خاصّة في لغات القبائل التّي نزحت من أطراف الجزيرة العربيّة، ومنهم من رأى أنّ فساد الألسنة قد ظهرت بوادره منذ عهد الرّسالة ومن أصحاب هذا الرّأي أبو الطّيب

1- ينظر: عبد الجليل مرتاض: العربيّة بين الطّبع والتّطبيع: ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر، د .، ط 1993م، ص 162.

اللّغوي (351هـ)، وابن جنّي (392هـ)"[1]"؛ لأنّ الإسلام أظّل بظلّه أمما أعجميّة، وكان من نتائج الدّمج البشري أن فقد العرب شيئا من السّليقة اللّغوية الفطريّة. ومن مظاهره أنّ رجلا لحن بحضرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فقال الرّسول الكريم: "أَرْشِدُوا أَخَاكُمْ إِنَّهُ قَدْ ضَلَّ".[2] ففي مثل هذا الموقف أنّ اللّحن تعلّق بالتّصحيح بصواب اللّغة وليس بالدّين.

واعتبارا من هذا الحديث، نستنتج أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم اعتبر اللّحن ضلالة، والظّاهر أنّه كان معروفا بهذا المصطلح نفسه "اللّحن" بدليل مَارُوِيَ عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: " أَنَا مِنْ قُرَيْشٍ وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ، فَأَنَّى لِي اللَّحْنُ؟".[3] فهو يريد أن ينفي عن لسانه المبين ولغته الفطريّة عيوبا تلحق اللّسان العربيّ، فتُنقص من فصاحته وبيانه.

لقد كره القدماء اللّحن حتّى تعايروا به، فقالوا عن مرتكبيه "لَيْسَ لِلأَحِنِ حُرْمَة".[4]

---

1 – ينظر السّيوطي: المزهر في علوم اللّغة: شرح وضبط محمّد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمّد البجاوي، بيروت، د .، ط، 1406هـ، 1986م، ج 2، ص397، وينظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربيّة، بيروت، ط10، دت، ج1:ص249، 296. وينظر عبد الجليل مرتاض: في رحاب اللّغة العربيّة . ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر، ط2، 2007م، ص3.

2– ابن الجنّي: الخصائص: تحقيق محمّد علي النّجار، دار الهدى، بيروت، ط2، د.ت، ج2، ص8، وينظر: عبد الجليل مرتاض: الفسيح في ميلاد اللّسانيات العربيّة، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط2، 2009 م، ص 68

3– المناوي: فيض القدير: شرح الجامع الصّغير، ط1، 1356 هـ، 1938م، ج3، ص38.

4– سعيد الأفغاني: في أصول النحو: دار الفكر، د، ط، 1964م، ص 14.

فهم يتغاضون عن الهفوات اللّغوية عند قراءة الأدب، لكنّهم لا يغفرون زلّة من يخطئ في قراءة كلام الله، لذلك أمر عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في عهد خلافته" أَلاَّ يُقْرِئَ القُرْآنَ إِلاَّ عَالِمٌ بِاللُّغَةِ".[1] ولعمر تُنْسَبُ المقولة المأثورة:

"تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّة، فَإِنَّهَا تُثَبِّتُ العَقْلَ وَتَزِيدُ فِي المرُوءَةِ"[2]. إذ للكتب المقدّسة حرمتها، وعندما نقول: "إِنَّ العَرَبِيَّةَ مَدِينَةٌ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ بِحِفْظِهَا وَبِبَقَائِهَا فَإِنَّ قَوْلَنَا هَذَا صَحِيحٌ بِشَهَادَةِ التَّارِيخِ".[3]

ويمثّل هنا التّصريح فإنّها الحقيقة التّاريخيّة هي التّي ورثتها الأمّة إلى اليوم وقد كانت مسيرة هذه الحقيقة منذ أن ذكر علماء العربيّة أنّ أبا الأسود الدّؤلي هو واضع اللّبنات الأولى للنّحو العربيّ بأمر من الإمام عليّ كرّم اللّه وجهه، حين وقع اللّحن في القرآن الكريم فهناك رواية مشهورة تقول: إنّ أعرابيّا في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي اللّه: قال من يقرئني شيئا ممّا أنزل اللّه على محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم؟ فأقرأه رجل آية من سورة التّوبة"...أنّ اللّه بريء من المشركين ورسوله."[4] بكسر اللاّم في رسوله، فقال الأعرابيّ: أو قد برئ اللّه من رسوله!.

إن يكن اللّه بريء من رسوله، فأنا أتبرأ من رسول اللّه !

فقال يا أمير المؤمنين: إنّي قدمت للمدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذه الآية الكريمة، فقلت: أوقد بريء اللّه تعالى من رسوله ! إن يكن

1- ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذّبه ورتبّه، عبد القادر بدران، بيروت، د، ط، د.ت، ج 7، ص 113.

2 - سعيد الأفغاني: في أصول النحو: ص 8.

3 - أنيس فريحة: نظريّات في اللّغة، الألسنية الثّالثة: ط2، 1981 م، ص 76.

4 - سورة التّوبة: الآية 3.

برئ من رسوله، فأنا أبرأ منه. فقال له عمر: رضي اللّه عنه: ليس هكذا يا أعرابيّ، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: "أنّ اللّه بريء من المشركين ورسوله بضمّ اللاّم.

فقال الأعرابيّ: وأنا_ واللّه_ أبرأ ممّن برئ منه اللّه ورسوله فأمر عمر، رضي اللّه عنه "ألاّ يقرئ القرآن إلاّ عالم باللّغة". وأمر أبا الأسود الدّؤلي بوضع النّحو.

إلى هذا الوضع صار أمر اللّحن في المائة الأولى للهجرة، والدّولة عربيّة فحين نستعرض هذه الأخبار الموثّقة نستنتج أنّ الخوف على العربيّة له ما يبرّره وله ما يفرضه، وأنّ النّحاة العرب لم يتصدّوا لمهمّة إنشاء النّحو إلاّ خدمة للقرآن وحماية له، فلولا عنايتهم من ألاّ يتسرّب إليه ظاهرة اللّحن، ما فكّروا في وضعه في ذلك المكان والزّمان بعينهما[1]. وهروبا من تأزّم الوضع وضياع اللّغة، انتهج العلماء منهجا وهو المنهج الإحصائي يعالجون بها استفحال الدّاء، فقاموا بجمع اللّغة وروايتها والتّقعيد لها. والجدير بالذّكر أنّ الاهتمام بالنّحو نشأ أوّل ما نشأ في ظلّ البحث عن الصّواب والخطأ في الأداء، يوم أن تفشّى اللّحن، فنهضت طائفة من اللّغويين وحملت على عاتقها عبء مُحاربته بغية الحفاظ على الأداء السّليم وكذا الفصيح للنّص القرآني. فَيُعَدُّ النّحو العربي عماد اللّغة العربيّة في استقامة لسانها وتوحيد العرب على قوانينها حتّى تظهر وحدتها على لسان عربيّ واحد، مصدره كلام العرب الذّي به نزل القرآن الكريم.

1- ينظر: تمّام حسّان: الأصول دراسة ابيستيمولوجيّة للفكر اللّغوي عند العرب: الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1982 م ص 104.

وقد يخلص النّقاش أنّ البوادر الأولى لظهور النّحو العربيّ كانت بسبب تفشّي ظاهرة اللّحن، واللّحن في تحديده هو الزّيغ عن الصّواب، حيث أنّ أوّل مشروع نحويّ بدأ مع أبي الأسود الدّؤلي بطلب من الإمام عليّ كرّم اللّه وجهه مخافة بأن يتسرّب اللّحن، ويمسّ القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، واجتناب المتحدّثين باللّغة العربيّة من الوقوع في الأخطاء اللّغويّة.

وتذكر الرّوايات حين تتوسّع في سرد الأخبار أنّ سبب وضع أبي الأسود الدّؤلي لهذا الفنّ: أنّه كان ليلة على سطح بيته، وعنده بنته، فرأت السّماء ونجومها، وحسن تلألؤ أنوارها، مع وجود الظّلمة، فقالت: يا أبت ما أحسن السّماء **!**بضمّ النّون وكسر الهمزة.

فقال: أي بنيّة، نجومها، وظنّ أنّها أرادت: أيّ شيء أحسن منها.

فقالت: يا أبت ما أحسن السّماء، بضمّ النّون وكسر الهمزة.

فقال: قولي ما أحسن السّماء**!** وافتحي فاك.

فلمّا أصبح، غدا على سيّدنا عليّ كرّم اللّه وجهه، وقال: يا أمير المؤمنين، حدث في أولادنا ما لم نعرفه، وأخبره بالقصّة، فقال: "هذا بمخالطة العجم العرب" ثمّ أمره فاشترى صحيفة وأملى عليه بعد أيّام: أقسام الكلام: ثلاثة، اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وجملة من باب التّعجّب، وقال انح نحو هذا، فلذلك سميّ بعلم النّحو"[1].

تمثّل هذه الضّروب من أخبار اللّغة العربيّة.

1- شرح الآجروميّة: أحمد زيني دحلان، ط1، 1428هـ، 2007م، حقوق الطّبع محفوظة لشركة غراس للنّشر والتّوزيع، الكويت، ص9.

يعدّ أبو الأسود الدّؤلي أوّل من وضع النّحو، وشكّل المصحف وضبط قواعد النّحو العربيّ من خلال وضعه باب الفاعل، المفعول به، المضاف، وحروف النّصب، الرّفع والجزم، ووضع النّقاط على الأحرف الأربعة. بدأ العلماء يأخذون عليه شتّى المعارف ممّا دفع إلى اتّساع علم النّحو شيئا فشيئا. ويكاد إجماع العلماء على أنّ اللّحن هو الباعث الأوّل على تدوين اللّغة وجمعها، وعلى استنباط قواعد النّحو وتصنيفها، فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر، لذلك هبّ أولوا الغيرة على العربيّة والإسلام إلى محاربته، بوضع النّحو واستنباط قواعده.[1]

أوّلا: المدرسة البصريّة:

تعدّ العراق مهد الحضارة إذ بها نشأ النّحو العربيّ والأسباب كالتّالي:

1- كان العراق ملجأ للعجم قبل الفتح الإسلامي، وبعد الفتح أقبل المسلمون عليها عربا[2].

2- كان العرب أكثر البلاد العربيّة إصابة بوباء اللّحن نتيجة لاختلاط العرب بالعجم.

1- ينظر سعيد الأفغاني "من تاريخ النّحو"، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص8، وينظر: عبد الجليل مرتاض، بوادر الحركة اللّسانيّة الأولى عند العرب، مؤسسّة الأشراف، بيروت، لبنان، 1988 م، ص56.

2- إبراهيم عبّود السّامرائي: المفيد في المدارس النّحوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن، ط1، 1427هـ، 2007م، ص23.

1) مصادر الدّراسة عند البصريّين:

اعتمد البصريّون على مصادر أساسّية في دراستهم:

أ- القرآن الكريم:

يعتبر القرآن الكريم أعلى نصوص العربيّة فصاحة وتوثيقا، واعتبر المصدر الأوّل لبناء القواعد وتصحيح الأساليب، فتعرض النّحاة للآيات القرآنيّة وجعلوها محور إعراب، وميدان تدريب، حيث اعتمد البصريّون لغة التّنزيل في إقامة نحوهم حيث كانوا يستشهدون به في كثير من المسائل بآيات قرآنية فنجدهم يضيّقون في هذا الشّأن فلم يأخذوا بقراءات عدّة وهي شيء من العربيّة، ولها أساس في لغة العرب، فقد حمّلوا بعض القراءات على الخطأ، مثل قراءة عبد الله بن عامر مقرئ الشّام[1]. في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ}.[2] بنصب "أَوْلاَدِهِمْ" وجرّ "شُرَكَائِهِمْ". فلم يقبلوا بقراءة ابن عامر، وإذا كان البصريّون يُخطئُون في قراءات مشهورة، "فإنّهم من دون شكّ لا يأخذون بالشّواذ منها على اتصال سندها وجريها على العربيّة."[3]

ب-الشّعر الجاهلي والإسلامي:

اعتبر البصريّون الشّعر الجاهلي أصلا من أصلهم، وتجاوزوه إلى الشّعر الإسلامي، فكان لهم من شعر الفرزدق وجري وأراجير العجّاج ورؤبة وأبي النّجم مادّة

1- إبراهيم السّامرّائي: المدارس النّحويّة، أسطورة وواقع، ص23.

2- الآية 137 من سورة الأنعام.

3- إبراهيم السّامرّائي: المدارس النّحويّة: أسطورة وواقع: ص23.

اعتمدوها في نحوهم. ولا نعمد أن نجدهم قد استشهدوا بشعر بشّار بن برد[1]، وإن تجاوز عصر الحقبة التّي وقفوا عندها في استشهادهم، فقد جاء في "الاقتراح" للسّيوطي فيما رواه ثعل عن الأصمعي: إنّ إبراهيم بن هرمة آخر من يحتجّ به، ومن المعلوم أنّ ابن هرمة هذا قد ولد سنة تسعين للهجرة، وعمّر طويلا حتّى تجاوز منتصف القرن الثّاني[2].

كما طمأن أوائل البصريّين إلى سلامة لغة جماعة من ينتمون إلى أصول غير عربيّة، فقد جاء أنّ أبا عمرو بن العلاء قد قال في الحسن البصري: "ما رأيتُ أفصحَ منَ الحسنِ البصريِ والحجّاجَ بنُ يُوسُفَ الثّقفِي، فقيل له: فأيّهما أفصح؟ قال: الحسن."[3] وعليه يمكن القول أنّ البصريّين اعتمدوا لغة القرآن الكريم والشّعر القديم من جاهلي وإسلامي، "واستبعدوا الحديث الشّريف من احتجاجهم والسّبب راجع إلى كون الحديث يشمل عددا كبيرا رُويَ بالمعنى، ولم يضبط لفظه، وأنّ طائفة كبيرة من المحدثين لم يكونوا عربا."[4]

1- إبراهيم عبّود السّامرائي: المفيد في المدارس النّحوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن، ط1، 1427هـ، 2007م، ص23.

2- ابن خلكان، "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح، إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت (د،ط)، (د،ت).

3- إبراهيم السّامرائي: المفيد في المدارس النّحوية: ص34.

4- السّيوطي: الاقتراح في أصول النّحو تعليق، محمود سليمان ياقوت: دار المعرفة الجامعيّة، د، ط 1426 هـ، 2006م، ص 144.

ج ـ القياس:

بدأ القياس في زمن مبكّر على نحاة البصرة القدامى، أمثال أبي إسحاق الحضرمي، ثمّ نمت بذوره على يد سيبويه الذّي أكثر منه وتوسّع فيه إلى أن بلغ كامل نضجه وتمام قوّته، وأصبح أساسا من أسس الدّراسة النّحوية التّي تبنى عليها القواعد. قال ابن الأنباري: "اعلم أنّ انكسار القياس في النّحو لا يتحقّق لأنّ النّحو كلّه قياس فمن أنكر القياس فقد أنكر النّحو ولا يعلم أحد من العلماء أنكره.

وينسب إلى الكسائي أنّه قال: إنّما النّحو قياس يتبع وبه في كل أمر ينتفع."[1]

والقياس في الحقيقة "منهج أصيل في فكر الإنسان منذ وجد".[2]

لذلك تفاوت النّحاة في اصطناعهم القياس، فمنهم من كان يتوسّع فيه، ويقيس كلّ ما وصل إليه، ومنهم من كان يتشدّد ويتحرج، فلا يقيس إلاّ على ما كان يرى أنّه كثير. أمّا الخليل فقد أكثر منه، وتوسّع فيه، فقد عرف بتصحيح القياس، وكاشف قناعه، و"النّاظر لكتاب سيبويه يجد فيه أمثلة كثيرة للأقيسة المختلفة المتعدّدة، ممّا يدّل على أنّ القياس وصل على يد الخليل إلى كامل نضجه، وتمام قوّته، وأنّه أصبح أساسا من أسس الدّراسة النّحويّة التّي تبنى عليها القواعد ويوزن بها الكلام."[3]

1- أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربّي، بيروت، لبنان، ط1، 2005 م، ص460 .

2- بلعيد صالح، في قضايا فقه اللّغة، ديوان المطبوعات الجامعيّة بن عكنون، الجزائر، (د، ط)، 1995 م، ص109.

3- الزّبيدي سعيد جاسم، القياس في النّحو العربيّ (نشأته وتطوّره)، دار الشّروق، د، ط، 1997م، ص 137 .

فمن مظاهر "تمسّك البصريّين بالقياس استدلالهم بالشّواهد الموثوق بصحّتها الكثيرة النّظائر، فبالغوا في التّحري والتّنقيب عن الشّواهد السّليمة، وكانوا يؤوّلون ما خالف القياس والقواعد تأويلا يتّفق وقواعدهم، أو سينكرون لكثرة ما انّدس من الرّواة وذوي الأهواء في اللّغة، أو يلتمسون الضّرورة إذا كان في نظم، فإن اعتاص كلّ ذلك عليهم فإنّهم يضطرون إلى جعله جزئيا شاذّا يحفظ ولا يقاس عليه."[1]

تطوّر النّحو وازدهر بفضل عدد من علمائه وأئمّته البارعين، وقد تواصلت جهود المدرسة البصريّة على أيدي علمائها الأوائل ومن بينهم:

أبو أسود الدّؤلي – ابن أبي إسحاق الحضرمي – عيسى بن عمر الثّقفي – أبو عمرو بن العلاء– يونس بن حبيب– الخليل — سيبويه – الأخفش الأوسط — قطرب – أبو عمر الجرمي أبو عثمان المازني – المبرّد – الزّجاج – ابن السّرّاج – السّيرافي.

1– أحمد جميل شامي: النّحو العربي قضاياه ومراحل تطوّره، دار الحضارة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، د .، ط، 1418هـ، 1997م، ص 155.

ثانيّا المدرسة الكوفيّة:

برزت مدرسة الكوفة بعد البصرة، وبدأت بداية غامضة حتّى لا يكاد يتبيّن من أمر علمائها الأوائل إلاّ مجرد أسمائهم، وهناك أقوال كثيرة حولهم وحول شغلهم بالنّحو، ومهما قيل فإن أهل الكوفة لم يفتهم الاشتراك في هذا العمل الضّخم دراسة النّحو ووضع قواعده إذ اتّخذوا البصرة متتلمذا لهم حتّى يسّر الله لهم من ثماره النّصيب الأوفى. "فاشترك علماؤها مع علماء البصرة في النّهوض به من عهد شيخهم أبو جعفر الرّؤاسي (ت175هـ). ومن هنا طفق علماء المدرستين يتنافسون فيما بينهم في هذا الميدان."[1]

اختلف العلماء في تحديد مؤسّسها وواضع قواعدها إلاّ أنّ أكثر العلماء متّفقون على أنّ أبا جعفر الرّؤاسي هو المؤسّس لهذه المدرسة[2]، ويرى بعضهم أنّ الكسائي هو مؤسّسها، كلّ تلك الاختلافات توحي لنا بأنّ المدرسة الكوفيّة كانت حقيقة تاريخيّة وعلميّة، بحيث كان لها علماؤها ومؤيّدوها، نذكر منهم:

الكسائي _ هشام بن معاوية الضّرير_ الفرّاء_ ثعلب_ الأنباري

2) مصادر الدّراسة عند الكوفيّين:

استطاع الكوفيّون أن يؤسّسوا مدرسة مستقّلة بذاتهم، ومذهبا خاصّا بهم، فوضعوا أسسا لقواعد النّحو العربيّ. وانطلقوا من مصادر جعلوها نصب أعينهم

1- ينظر: إبراهيم عبّود السّامرائي، المفيد في المدارس النّحوية، ص86 .

2- السّيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة "المجلّد الأوّل، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، ص35.

الهدف الذّي يرمون إليه[1]، إذ شكّلوا مدرسة فكريّة، والفضل يعود إلى انتقال الدّراسة من البصرة إلى الكوفة مع كوفيّين نجدهم تتلمذوا عل يد نحاة وعلماء بصريّين، ونضرب خير مثال على الكسائي الذّي عدّ من مؤسسّي المدرسة البصريّة، تتلمذ على الخليل والفرّاء وأخذ عن يونس بن حبيب وقرأ كتاب سيبويه، ولا نكثر في الحديث عن المدرسة الكوفيّة، ما هي إلاّ إطلالة للولوج في مصادر النّحو الكوفي.[2] وهي كالآتي:

أ_ لغات الأعراب:

- "استشهد الكوفيّون بلغات سكّان الأرياف لثقتهم بها، في حين رفض البصريّون الإستشهاد بها لضعف فصاحتها."[3]" ومن قبائل الأرياف: أهل اليمن الذّين لا يوثق بفصاحتهم، في رأي البصريّين، لاختلاطهم بسكّان الحبشة والهند والتّجار الذّين يفدون إليهم من مختلف الأنحاء."[4]

فقد أخذوا عن أعراب البوادي الفصحاء الذّين نقل عنهم البصريّون واحتجوا بكلامهم نحو (قيس، تميم، أسد، هذيل وبعض كنانة، وبعض الطّائيين). و"لعلّ الدّاعي الذّي جعل الكوفيّين يأخذون عن اللّهجات التّي يأباها البصريّون أنّهم وثقوا بأولئك، ورأوا أنّ لغاتهم تمثّل فصيحا من اللّغات يصحّ إغفاله وخاصّة بعدما رأوها

1- السّيوطي: بغية الوعاة: ج1، ص396.

2- ينظر: ابن النّديم: الفهرست: ص116، والقفطي: انباه الرّواة على أنباه النّحاة: ج1، ص138.

3- عبد العال سالم مكرم: القرآن وأثره في الدّراسات النّحوية، دار المعارف، مصر، د، ط، د، ت.

4- أحمد جميل شامي: النّحو العربي: قضاياه ومراحل تطوّره: ص159.

متمثّلة في قراءات القرآن السّبع."[1] كما نقل لنا الرّياشي(ت257هـ) البصري: نحن نأخذ اللّغة عن حرشة الضّباب، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء _يعني أهل الكوفة_ أخذوا اللّغة عن أهل السّواد أصحاب الكواميخ[2]، وأكلة الشّواريز[3].

ويروى أيضا أبو زيد (ت215 هـ) عن الكسائي زعيم الكوفيّين ثمّ سار إلى بغداد فلقي أعراب الحليمات.[4]

فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللّحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة.

ب * الشّعر العربيّ:

أُعتبر الشّعر من المصادر الهامّة التّي لم يستطع الكوفيّون الإستغناء عنه فلو أمعنا النّظر في هذا المصدر نجد الصّبغة الشّعرية تحظى أكثر من غيرها بالعناية والرّعاية، فالشّعر هو العنصر المسيطر على دراسات الكوفيّين، ولعلّ ما يُفسّر ذلك اهتمام كثير من الرّواة بحفظه ونقله، حيث نجد حمّاد الرّاوية يقول: "أمر النّعمان فنسخت له أشعار العرب في الطّنوج، وهي الكراريس ثمّ دفنها في قصره الأبيض، فلمّا كان المختار ابن أبي عبيدة قيل له إن تحت القصر كنز فاحتفره، فلّما فتحه أخرج تلك الأشعار، فمن ثمّ أهل الكوفة أعلم بالشّعر من أهل البصرة."[5]

1- مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة: تح، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط.2، 1998 م، ص 332.

2- الكواميخ: جمع كامخ: نوع من الإدام .

3- الشّواريز: جمع شيراز: اللّبن الثّخين، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص537.

4- ينظر: السّيوطي: الاقتراح في علم أصول النّحو، ص202.

5- سالم مكرم: عبد العال: المدرسة النّحويّة في مصر والشّام، مؤسّسة الرّسالة، ط2، 1990 م، ص199.

ج * القراءات:

إنّ الإستشهاد بالقرآن الكريم لا مجال للنّقاش فيه، ولا يمكن أن يخضع للنّقد والتّجريح، فهو محاكاة للسان العرب فاقت لغته سائر أنواع الكلام من حيث السمو البياني والقدرة التبليغية، حتّى أصبح المثل الأعلى الذّي يفزع إليه الفقهاء، ومنه يأخذ علماء اللّغة شواهدهم، ويبني النّحوي قواعد إعرابه، ويرجع إليه القول في معرفة خطأ القول من صوابه، إلاّ أن اختلاف القراءات القرآنيّة جعل بعض النّحاة يضعون شروطا كأن تصح نسبتها إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم. وأنّ توافق قواعد اللّغة العربيّة، ومن أمثلة اعتماد الكوفيّين على القراءات في تعليماتهم وبناء أصولهم وأحكامهم عليها لما غلط البصريّون قراءة بن عامر. {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ يَرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْشَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}[1] بجرّ شركائهم بالإضافة ونصب أولادهم على المفعوليّة.

وقد اجتمع القرّاء أيضا على القراءة (يُخَرِّبُونَ) بالتّخفيف، من قوله تعالى: {يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤْمِنِينَ}[2]. إلاّ أنّ أبا عبد الرّحمن السلمي فإنّه قرأها بالتّشديد(يُخربون) وقد تناول الفرّاء هذه الآيّة، وخرج القراءتين وصوبّها بقوله: "كأنّ يخرّبون: يهدِمون، ويخرّبون بالتّخفيف: يخربون منها ويتركونها، ألا ترى أنّهم كانوا ينقبون الدّار فيعطّلوها؟ فهذا معنى (يخربون) والذّين قالوا يخربّون ذهبوا إلى التّهديم الذّي كان المسلمون يفعلونه وكلّ صواب، والإجماع من القرّاء أحب إليّ."[3]

1- الآية:37 من سورة الأنعام.

2- الآية 2 من سورة الحشر.

3- مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة: ص 314.